الفصل الخامس عشر

الغضب ينتاب كلود فرولو

احتاج كلود فرولو إلى بعض الوقت للتفكير، فخلع ملابسه الرسمية، وطلب من مراكبي أن يعبر به النهر.

لماذا هاجم القائد فيبس؟ ماذا فعلت الفتاة الغجرية له؟ ومع ابتعاده أكثر عن منتصف باريس ملأت أفكار أكثر قسوة ذهنه. لقد عاد القائد! ماذا سيحدث الآن؟ توجد إزميرالدا الآن في كاتدرائية نوتردام حيث أرادها بالضبط دائمًا.

هناك الكثير من الأماكن في باريس يمكن لأي مجرم الذهاب إليها لتجنب القبض عليه. تُعرَف هذه الأماكن بالمحاريب. فلا يُسمح لحراس الملك بدخولها، لذلك فهي مكان مثالي للاختباء. لكن المشكلة الوحيدة المتعلقة بالمحراب هي أن المجرم لا يمكنه مغادرته.

كانت هناك غرفة في كاتدرائية نوتردام تُستخدَم لهذا الغرض، وهي الغرفة التي أخذ كوازيمودو الفتاة الغجرية إليها بعد أن حملها أعلى الكنيسة.

وعندما أفاقت إزميرالدا نظرت حولها. وتدافعت الأفكار بكافة صورها في عقلها في الحال. كانت تعلم أنها في كاتدرائية نوتردام، وأن كوازيمودو قد ساعدها.

سألت إزميرالدا كوازيمودو: «لماذا أنقذتني؟» فنظر كوازيمودو إليها بحنو، وغادر في هدوء.

لم تعلم إزميرالدا ما يتوجب عليها فعله، فقد عرفت أنه حي؛ لقد رأته، لكنه بالتأكيد لم يعد يحبها، وإلا لما تركها لتلقى العقاب على هذا النحو.

طرق كوازيمودو الباب، ففتحته إزميرالدا، لكنها لم تستطع أن تقول أي شيء.

أعطاها كوازيمودو سلة من الطعام، وقال: «الأمور على ما يرام؛ أنت في أمان هنا. يلزم عليكِ البقاء في هذه الغرفة أثناء النهار، أما في الليل فباستطاعتك السير بأرجاء الكنيسة. لن يعلم أحد بالأمر.»

وقبل أن تتمكن من أن تقول أي شيء غادر كوازيمودو فجأة. شعرت بعد ذلك بشيء دافئ يتحسس ساقها؛ إنها دجالي! أنقذها كوازيمودو هي الأخرى. فبكت إزميرالدا، وعانقت نعجتها الصغيرة الجميلة. وعندما غربت الشمس تركت غرفتها الصغيرة الآمنة.

استيقظت إزميرالدا في الصباح التالي لتجد كوازيمودو ينظر إليها من النافذة.

قالت ملوحةً له: «ادخل، أرجوك!»

لكن كوازيمودو، لأنه لم يستطع سماعها، ظن أنها تريده أن يبتعد.

فلوحت بيدها ثانيةً، وقالت له: «لا، لا! ادخل، ادخل!»، فدخل كوازيمودو غرفتها، ووقف كلٌّ منهما ينظر للآخر. رأت عن قرب عينه الواحدة، وحدبته، وساقيه المتقوستين.

قال كوازيمودو أخيرًا: «أنا أصم.»

فأومأت إزميرالدا برأسها.

قال كوازيمودو: «يمكنك التحدث معي بالإشارات، ويمكنني أيضًا قراءة شفتيك.»

سألته: «حسنًا، لماذا أنقذتني؟»

نظر كوازيمودو إلى وجهها الجميل بإمعان، وقال: «حاولت اختطافك تلك الليلة، لكنك قدمت لي يد العون في اليوم التالي، وأعطيتني الماء. إنك حنونة للغاية.» وقف بعد ذلك ليغادر المكان، فأشارت إليه بالبقاء.

قال: «يجدر بي ألا أفعل، فيجب أن أعمل»، وأعطاها صفارة فضية وهو يقول: «يمكنك استدعائي بهذه؛ فأنا أستطيع سماعها.» وهكذا ترك إزميرالدا وحدها.

مر الوقت، وبدأت إزميرالدا تشعر أنها في منزلها بوجودها في تلك الغرفة الآمنة. أخذت ذكريات الماضي السيئة في التلاشي، وبدأت إزميرالدا تحب المناظر والأصوات في كاتدرائية نوتردام. وشأنها شأن كوازيمودو، صارت الكنيسة عالمها الخاص بكل ما فيها من قساوسة ومصلين وجدران، وبخاصة الأجراس، فقد كانت الأجراس هي الشيء المفضل لديها. صار كوازيمودو صديقًا وفيًّا لها؛ فكانا يقضيان وقتًا طويلًا معًا. لكن ذكرى واحدة رفضت أن تفارقها؛ فيبس، فصار اهتمامها به أكبر من أي وقت مضى.

في صباح أحد الأيام كانت إزميرالدا تنظر من نافذتها، وكوازيمودو يقف على السطح الموجود بجانبها. كان الاثنان يشاهدان الميدان.

صاحت إزميرالدا فجأة: «فيبس! فيبس!»

رأى كوازيمودو أنها كانت تشير إلى ضابط شاب وسيم يمتطي حصانًا بالأسفل. أخذت تصيح ثانيةً: «فيبس! فيبس! إنه يدخل ذلك المنزل، ولا يسمعني! فيبس!»

سألها كوازيمودو: «هل أذهب وأحضره لك؟»

أومأت برأسها ولوحت بذراعيها، وقالت: «نعم، أرجوك. اذهب سريعًا.»

وعندما وصل كوازيمودو إلى الميدان كان الجندي قد رحل. فلوح كوازيمودو لإزميرالدا بأعلى، وأشار إلى أنه سينتظر حتى يخرج فيبس من المنزل. مر الكثير من الناس جيئة وذهابًا؛ كانوا يستعدون لاحتفال ما. مر اليوم بأكمله على هذا الحال: كوازيمودو ينتظر، إزميرالدا تنظر من النافذة، وفيبس لا يمكن العثور عليه في أي مكان.

حل الليل، وأُضيئت الشموع في نوافذ المنزل. وتمكن كوازيمودو من رؤية الناس يرقصون بالداخل. ولولا صممه لتمكن من سماع الموسيقى أيضًا.

تأخر الوقت كثيرًا، لكن كوازيمودو ظل منتظرًا. غشت السماء المظلمة سحب ضخمة أخفت النجوم. وظهر بعد ذلك شخصان في الشرفة الموجودة فوقه. كانا فيبس وفلور دي ليس. أحاط القائد الفتاة بذراعه. أحزنت كوازيمودو رؤية اثنين يتمتعان بالجمال والسعادة؛ فلن يحظى بمثل هذه الحياة أبدًا. وتمنى ألا تراهما إزميرالدا؛ كان يعلم أنها ستنزعج إن فعلت.

بعد ذلك بفترة قصيرة رأى كوازيمودو القائد يغادر المنزل، ويمتطي حصانه. أسرع من أمام كوازيمودو، لكن الأحدب ركض خلفه ونادى عليه: «أيها القائد!»

توقف فيبس، واستدار وسأل: «ماذا تريد مني؟»

أمسك كوازيمودو بالحصان على نحو جريء، وقال: «اتبعني، هناك من يرغب في التحدث معك.»

قال فيبس: «انتظر! ما الذي تفعله؟ أعرف من أنت ... ارفع يديك عن حصاني!»

لم يسمعه كوازيمودو، فاستمر في سحب لجام الحصان نحو كاتدرائية نوتردام. وقال بصوته الأجش: «هناك امرأة تحبك في انتظارك.»

قفز القائد من فوق الحصان، ووقف أمام كوازيمودو ثم قال: «أعلم أنك أصم، أيها الأحمق. فلتقرأ شفتي: سوف أتزوج، لتخبر إزميرالدا بذلك؛ أنت تتحدث عنها على ما أعتقد. أنت الأحدب الذي أنقذها، أليس كذلك؟ لا أرغب في أن تكون لي أية علاقة بها.»

ثم هز فيبس رأسه، وقفز صاعدًا حصانه ثانيةً، جذب لجام الحصان بقوة، فسقط كوازيمودو على الأرض. وانطلق القائد بحصانه سريعًا وسط ظلام الليل.

وقف الأحدب، ونفض التراب عن نفسه. لم يلحق بالقائد، بل عاد إلى الكنيسة.

سألت إزميرالدا: «هل عثرت عليه؟»

أجاب كوازيمودو: «لم أفعل.»

صاحت إزميرالدا: «كان يجب أن تنتظر طوال الليل! ارحل الآن! هيا اذهب!»

شعرت إزميرالدا باستياء شديد من كوازيمودو. ولم يرد هو أن يزيد غضبها، فابتعد عن طريقها. عندما تستيقظ كل يوم تجد إفطارها جاهزًا أمامها. افتقدت إزميرالدا كوازيمودو، لكن من كانت ترغب في التحدث إليه هو فيبس. قضت ساعات في نافذتها الصغيرة تراقب المنزل الموجود بالجانب الآخر من الشارع.

في تلك الأثناء كان كلود فرولو قد أغلق بابه أمام الجميع. حبس نفسه في غرفته مع كتبه وجرعاته الدوائية. وما كان ليفتح الباب لأحد، ولو كان أخاه. كان يفكر في إزميرالدا ليل نهار. وصل غضبه منها في إحدى الليالي ما جعله يرتدي عباءته ويعلق مفاتيحه بجانبه ويترك معتزله السري.

حدث كلود فرولو نفسه: «لقد دمرت حياتي.»

كانت إزميرالدا نائمة في غرفتها، وأيقظها صوت فتح الباب، فأحكمت إغماض عينيها، وهي تفكر: «لا بد أنه القِس، فما كان كوازيمودو ليدخل غرفتي أبدًا دون أن يطرق الباب.»

صاحت إزميرالدا: «اخرج من هنا! ابتعد عنيّ!»

أمسك كلود فرولو بذراعيها، وقال: «حان الوقت لتأتي معي، سألقنك درسًا. لقد سحرتني أيتها الساحرة.»

صاحت: «لا! لا!»

ثغت دجالي، ودفعت إزميرالدا كلود فرولو بعيدًا، ونفخت بقوة في الصفارة الفضية التي أعطاها إياها كوازيمودو. فجأة، شعر كلود فرولو بيد شديدة البأس تسحبه بعيدًا عن الفتاة الغجرية. كان ذلك كوازيمودو! بدأ الاثنان يتعاركان، ولم يدرك كوازيمودو أن من يتعارك معه هو كلود فرولو إلى أن انعكس ضوء القمر على وجهه.

توقف كوازيمودو عن القتال في الحال، وقال: «كلود فرولو، أنا آسف للغاية.» ركله القِس مرة أخرى، لكنهما كانا قد وصلا في ذلك الوقت إلى الرواق، وإزميرالدا أغلقت باب

غرفتها. نزل كلود فرولو مترنحًا على درجات السلم، وأخذ يفكر: «لم ينته الأمر بعد، سأنتقم منها جزاء ما فعلته بي.»

شعر كوازيمودو بألم في بطنه حيث ركله كلود فرولو. نهض، وأمسك بها بقوة. كانت الصفارة على الأرض خارج غرفة إزميرالدا. فالتقطها، وطرق الباب طرقًا خفيفًا، وقال: «هذا أنا، كوازيمودو.» فتحت إزميرالدا الباب وأخذت تبكي.

قالت وهي تأخذ منه الصفارة: «شكرًا لك.» ثم ألقت بنفسها على السرير، وأخذت تبكي بحرقة.

الفصل السادس عشر

الهجوم على نوتردام

كان بيير قد سمع أن إزميرالدا تنعم بالأمان في كاتدرائية نوتردام، فأسعده هذا. لكنه افتقد دجالي. مرت الأيام، ولم تعد «زوجته» تشغل تفكيره في أغلب الأحيان.

كان بيير يؤدي الخدع أثناء النهار في الطرقات مع المتشردين الآخرين، وفي الليل يمارس الكتابة.

في أحد الأيام، وأثناء سيره بالشارع، نزلت يد ثقيلة على كتفه. وعندما استدار رأى كلود فرولو.

صُدِم بيير من مدى الشحوب الذي بدا عليه أستاذه الذي تتلمذ على يده في الماضي.

سأله كلود فرولو: «كيف حالك، يا بيير؟»

– «على ما يرام. صحتي جيدة.»

– «ألم تواجه أية مشكلات إذن؟»

– «كلا، مطلقًا.»

– «أين أنت ذاهب الآن؟»

– «لا مكان في الحقيقة.»

سأل بعد ذلك كلود فرولو الكاتب عما إذا كان ينعم بالسعادة أم لا، فأجابه بيير بأنه سعيد للغاية.

سأله كلود فرولو: «لكنك ما زلت فقيرًا، أليس كذلك؟»

أجابه بيير: «بالطبع.»

في تلك اللحظة مر القائد فيبس ورفاقه من حرس الملك سريعًا بجانبهما على ظهور خيولهم. حدق كلود فرولو بفتور في القائد.

سأل بيير: «لماذا تحملق على هذا النحو في ذلك الجندي؟»

– «هذا القائد فيبس.»

صاح بيير: «فيبس! هذا الجندي الذي تسبب في كل العناء الذي واجهته إزميرالدا؟»

– «ما الذي تعرفه عنها؟»

نظر بيير إلى كلود فرولو مستغربًا، وقال: «لا شيء، لم أرها منذ يوم محاكمتها عندما كانوا سيضعونها في عمود التشهير.»

– «هل هذا كل ما تعرفه؟»

– «سمعت أنها أُخذت إلى المحراب الموجود في كاتدرائية نوتردام، لكن المحكمة أصدرت حكمًا بأنها ستتلقى عقابها مع ذلك. هذه المرة الأولى التي يفعلون فيها ذلك، لقد سمعت عن ذلك بالأمس.»

– «ماذا؟ ما الضرر في بقائها بكاتدرائية نوتردام؟»

– «إنهم يرون أنها يجب أن تنال عقابها لمحاولتها قتل القائد فيبس. وقد سمعت أيضًا أن الجندي ألقى باللوم عليها. إنه لأمر مدهش حقًّا اختفاؤه وعودته على هذا النحو.»

– «ألا ترغب في مساعدتها؟»

أجاب بيير: «إنني منشغل للغاية بكتبي.»

سأل كلود فرولو: «نعم، لكن ألا يمكنك التفكير في أي وسيلة لمساعدتها؟»

– «حسنًا، يمكننا أن نحاول الحصول على عفو من سير روبرت.»

قال كلود فرولو: «لن يوافق أبدًا.» وأخذ يسير جيئة وذهابًا ثم قال: «ليس هناك سوى سبيل واحد لإنقاذها.»

رد بيير: «استمر.»

– «يجب أن نهربها خارج المدينة. سيكون عليها أن تدعي أنها أنت، وأنت تدعي أنك هي. وفي اللحظة الأخيرة يمكنك أن تكشف عن هويتك الحقيقية.»

– «لكنهم سيعاقبونني بدلًا منها!»

– «كلا، لن يفعلوا؛ فأنت لم ترتكب جُرمًا.»

تردد بيير؛ فهو لا يريد أن يُعاقَب. كان لديه أيضًا الكثير من الأمور ليفعلها؛ السير في شوارع المدينة، وقراءة كتبه، ليس لديه وقت ليوضع في عمود التشهير. فقال: «لا أعتقد أنها فكرة جيدة، لكنني سأفكر فيها.»

نظر بيير إلى كلود فرولو، وسقطت دمعة على وجه القِس.

قال بيير: «حسنًا، سأساعدك. لكن لدي فكرة أفضل.»

قال كلود فرولو: «حسنًا ...»

قال بيير: «أصدقائي المتشردون سينقذونها؛ إنها المفضلة بينهم. إليك الخطة.» ثم همس في أذن كلود فرولو.

وعند انتهائه صافحه كلود فرولو، وقال: «حسنًا، ستنجح هذه الخطة.»

عاد كلود فرولو إلى كاتدرائية نوتردام ليجد جيون في انتظاره. قال جيون: «أخي، لقد جئت لأراك.»

سأله كلود فرولو دون أن ينظر إليه: «ما الأمر؟»

– «أنا بحاجة إلى نصحك. إنك محق. كنت محقًّا بشأن المدرسة والدراسة.»

– «و؟»

– «لقد أسأت التصرف حقًّا، تورطت في حماقات، وجعلت من نفسي أضحوكة. أدين للجميع بالمال. أود أن أحيا حياة أفضل من تلك التي أحياها.»

– «حقًّا؟»

– «نعم، لكنني بحاجة لبعض المال أولًا.»

– «ليس لدي أي أموال لأعطيك إياها.»

سأل جيون: «صدقًا؟»

أجابه كلود فرولو: «صدقًا.»

قال جيون: «حسنًا، سأصير إذن متشردًا.»

نظر إليه كلود فرولو نظرة خلت من المشاعر، وقال: «حسنًا.»

حنا جيون رأسه قليلًا، وغادر الغرفة. أخذ كلود فرولو يراقبه من النافذة. وبينما أوشك جيون على مغادرة الحديقة ألقى إليه كلود فرولو بكيس من النقود.

– «هذه آخر نقود ستحصل عليها مني!»

ابتسم جيون، ومضى في طريقه.

جلس بيير في زاوية الغرفة المظلمة محاطًا بالمتشردين. كانت هناك حفلة كبيرة، وانتشر الناس في كل مكان، يرقصون ويغنون.

صاح أحدهم: «مرحى! مرحى!» وكان ذلك جيون الذي أردف: «أنا متشرد! كنت سيدًا نبيلًا من قبل، لكنني الآن واحد منكم! وإليكم بخطتنا لهذه الليلة: سنذهب إلى

كاتدرائية نوتردام، ننقذ الفتاة، ونشعل النيران في المكان! ضاعت ثروتي، لذا سأنضم إليكم أيها النساء والرجال العظماء. يتوجب علينا إنقاذ إزميرالدا!»

ناولت إحدى السيدات جيون عشاءه، فجلس وأخذ يأكل، ناسيًا خطابه في الحال. قرعت أجراس الكنيسة من بعد.

وقف كلوبان المتسول، وقال: «هذه هي الإشارة! أجراس نوتردام تقرع ... حان وقت الذهاب.»

غادرت عصبة المتشردين غرفتهم الدافئة، وساروا بشوارع باريس المتعرجة نحو كاتدرائية نوتردام.

لم يستطع كوازيمودو النوم بعد قرع أجراس منتصف الليل، فصعد الدرج إلى أعلى، وجلس على قمة البرج الشمالي. كان الظلام الدامس يخيم على المكان، والضوء الوحيد جاء من بوابة سانت أنطوني.

ثمة أمور غريبة كانت تحدث مؤخرًا. على مدار الأيام القليلة الماضية رأى كوازيمودو رجالًا ينظرون إلى أعلى تجاه نافذة إزميرالدا. وصارت تصرفات كلود فرولو أيضًا أكثر غرابة من المعتاد.

لاحظ كوازيمودو فجأة أن خط الماء الأسود بدا أطول من المعتاد، فدقق النظر واكتشف أنها رءوس بشرية. كان حشد من الناس يتحركون تجاه الكنيسة. خيم الصمت على هذا الصف الطويل من الناس، وبدوا كالضباب الذي يزحف ببطء للأمام.

فكر كوازيمودو: «إزميرالدا! لا بد أنهم جاءوا من أجلها.»

عرف كوازيمودو أنه يجب عليه إيقافهم. اقترب الحشد أكثر، كانوا يحملون عصيًّا وأسلحة أخرى. توقفوا أمام الكنيسة، وأضاءوا مشاعلهم. تعرف كوازيمودو على بعض الوجوه، وهي وجوه السيدات والرجال الذين توجوه ملك المهرجين.

اتخذ المتشردون أماكنهم حول الكنيسة. جيون أيضًا كان هناك. أصدر كلوبان الأمر: «تريد المحكمة معاقبة إزميرالدا بالرغم من أنها التمست الأمان في الكنيسة! يجب علينا إنقاذها. هيا بنا!»

صعد الرجال درجات السلم، وحاولوا فتح الباب عنوة. فأخذوا يدفعون ويدفعون، لكنه لم يتزحزح.

سقطت بعد ذلك عارضة من أعلى الكنيسة، واصطدمت بالأرض. أصيب المتشردون بالرعب، وفر الكثيرون منهم. لم يعلموا ما حدث، وظن بعضهم الأمر سحرًا.

قال كلوبان: «انهضوا يا رجال! هلم إلى الباب! هيا بنا!»

نظر الرجال إلى العارضة، ثم إلى قمة الكنيسة، ولم يتحركوا. كانوا مذعورين للغاية.

صاح كلوبان: «إنها ليست سوى قطعة من الخشب! ليست بالشيء الذي تخافونه!»

صاح جيون: «لنستخدمها في كسر الباب!»

صاح المتشردون حماسًا، وهم يدفعون العارضة بعنف تجاه الباب. أصدر الباب صوتًا كالطبلة الكبيرة، لكنه لم ينكسر، فضربوه ثانيةً.

سقط بعد ذلك وابل من الحجارة على المتشردين من أعلى. كان كوازيمودو؛ يدافع عن كاتدرائية نوتردام!

علم الأحدب أن الباب لن يصمد طويلًا. ضرب المتشردون الباب مرة أخرى، وسمعوا ضجة مدوية خلفهم.

صرخ أحدهم: «ماذا كان ذلك؟»

صاح آخر: «إنه مزيد من السحر!»

– «هيا بنا! لا يستحق الأمر التضحية بحياتنا!»

دوت انفجارات عنيفة من السقف، وأضاءت كل التماثيل الموجودة بجانب الكنيسة، فجعلتها تبدو كما لو كانت حية. كان كوازيمودو يشعل مفرقعات نارية!

سأل كلوبان وهو ينظر حوله: «ماذا حدث للجميع؟ أين ذهبوا؟»

أجابه أحد المتشردين: «روعهم السحر، ففروا!»

– «أين بيير؟ هل فر هو أيضًا، ذلك الجبان؟ وماذا عن جيون؟ هل ذهب أيضًا؟ بالله عليكم يا رجال. ماذا سيحدث لإزميرالدا إن لم ننقذها؟»

سار جيون نحوهم حاملًا سُلمًا، وصاح: «لنستخدم هذا السلم!» كان قد عثر على خوذة معدنية غريبة، وارتداها على رأسه.

سأله كلوبان: «ما الذي ستفعله بذلك؟»

رد جيون: «أترى تلك النافذة؟» أومأ كلوبان برأسه، فأردف جيون: «سأستخدم السلم لأمر من خلالها إلى الداخل. ومن الرواق يمكنني الدخول إلى الكنيسة.»

في غضون لحظات كان السلم قد وُضِع قبالة جدار الكاتدرائية، وبدأ جيون في الصعود عليه ببطء. وما إن وصل إلى داخل البهو حتى ظهر كوازيمودو. تأوه الأحدب أثناء دفعه للسلم بعيدًا عن الحائط. وعندما سقط السلم على الأرض انكسر إلى نصفين، وما عاد صالحًا للاستخدام بعد ذلك. صار جيون بالداخل وحده مع كوازيمودو الذي أمسك به، وأحكم قبضته عليه، ثم أوثق تقييده.

قضى بيير ليلة مزعجة بحق، فعندما كان يحاول الوصول إلى المتشردين بالقرب من الكنيسة، سحبه أحد حراس الملك إلى داخل القاعة الكبرى حيث كان سير روبرت منتظرًا.

قال الحارس: «ها هو أحد المتشردين الذين يهاجمون المدينة.»

سأل سير روبرت: «من أنت؟ وما الذي تفعله؟»

نكس بيير رأسه، وقال: «أنا بيير جرينجوار، أعمل شاعرًا، وما هذا كله سوى خطأ كبير.»

صاح سير روبرت: «خذوه إلى السجن!»

صرخ بيير: «كلا، انتظروا ...» وأخذ يشرح أنه مواطن باريسي شديد الإخلاص، وليس متشردًا على الإطلاق.

قال سير روبرت: «آه، لقد عرفتك الآن. أنت الرجل الذي كتب المسرحية التي عُرضت أثناء مهرجان المهرجين. دعوه يذهب ... إنه ليس واحدًا من مثيري الشغب.»

عندما كان الحراس يلقون ببيير ثانية في الشارع وصل حارس آخر. قال ذلك الحارس: «سير روبرت، يهاجم الجمع كاتدرائية نوتردام. إنهم يحاولون إنقاذ الفتاة الغجرية.»

استغرق سير روبرت دقيقة في التفكير، ثم أمر الجميع بالخروج لمقاتلة الجمع. وأضاف: «احرصوا على أخذ حراس القائد فيبس معكم. إنهم الأفضل لدينا.»

سار بيير مترنحًا في الشارع حتى توقف أمام رجل يرتدي عباءة سوداء، فقال له: «هل هذا أنت، كلود فرولو؟»

– «متأخر كعادتك، يا بيير.»

– «ليس الذنب ذنبي؛ ألقى حراس الملك القبض عليّ.»

قال كلود فرولو: «لا يهمني! ما كلمة السر للمتشردين؟ بدونها لن يسمحوا لي بالاقتراب منهم. أخبرني بها الآن!»

– «آه، آه، إنها ... اممم ... «حريق صغير في الباستيل» نعم، هذه هي.»

– «حسنًا، سيسمحون لي الآن بالمرور. لقد أقاموا الحواجز بجميع الطرقات، أولئك المتشردون. لقد حصلت على مفتاح الأبراج التي ستقودنا إلى داخل الكنيسة. هيا بنا!»

ومن ثم، أسرع الرجلان بالشارع في تجاه كاتدرائية نوتردام.

نظر كوازيمودو للخارج، ولاحظ ازدياد غضب الجمع. لم يعرف ما يجب عليه فعله، كان على وشك الاستسلام كليةً عندما رأى القائد فيبس ورجاله. دار قتال بين رفاق القائد والمتشردين، لكن الجنود كانوا أقوى. كان مشهدًا مخيفًا. كانت الكنيسة وإزميرالدا في أمان! لكن عندما ركض كوازيمودو بالرواق حتى وصل إلى غرفتها كانت فارغة؛ لم تكن إزميرالدا فيها!

الفصل السابع عشر

لمّ شمل غير سعيد

استفاقت إزميرالدا لتجد رجلين في غرفتها، فصرخت. قال أحد الرجلين: «لا تقلقي! هذا أنا، بيير!»

وأردف: «أنتِ في خطر؛ جاء الجمع لإنقاذك، وسوف يدمرون الكنيسة، وقد يلحق بك أذى.»

سألته وهي تلقي بشالها حول جسدها: «من هذا الرجل الذي يصاحبك؟»

– «صديق فحسب، هيا!»

نزل ثلاثتهم، ودجالي تصاحبهم، مسرعين على درجات سلم البرج، ثم خرجوا إلى فناء الكنيسة. عادوا عبر الأزقة حتى وصلوا إلى الماء حيث كان هناك قارب صغير في انتظارهم.

وعندما بدءوا يجدفون مبتعدين، لم يستطع بيير كبح انفعاله، فقال: «لقد نجونا! أنتِ بأمان!» أما الرجل الذي كان يرتدي العباءة، وهو في الواقع كلود فرولو، فلم ينطق.

نظرت إزميرالدا إليه، فأخافها عبوسه، وعباءته السوداء. لم تعرف أنه القِس. أخذ يجدف دون أن ينبس ببنت شفة. أما بيير فكان يتحدث بسعادة أثناء تحرك القارب في النهر.

ارتطم القارب عند وصوله إلى الشاطئ، ومد الرجل ذو العباءة يده لإزميرالدا ليساعدها في الخروج من القارب، لكنها لم تمسك بها. ثمة شيء بشأنه جعلها تشعر شعورًا قويًّا بعدم الارتياح.

كان بيير على الشاطئ بالفعل مع دجالي.

فكر بيير: «لا يمكنني إنقاذ كليهما، ستكون بخير مع كلود فرولو. أما أنا، فسأمضي في طريقي.» وهذا ما فعله بالفعل؛ أمسك دجالي من طوقها وفر بعيدًا.

وعندما خرجت إزميرالدا من القارب، لاحظت أن دجالي وبيير قد اختفيا. كانت وحدها مع الرجل الغريب! ارتجفت عندما أمسك بيدها، وسحبها خلفه. سار الاثنان حتى وصلا إلى ميدان بلاس دي جريف.

وقف الرجل أمام عمود التشهير، ورفع قلنسوة عباءته ليكشف عن وجهه، وقال: «سيضعونك هنا إذا قبضوا عليك. سأترك لك الاختيار: إما أن تأتي معي وتكوني في أمان، وسوف أحبك، أو أن تعاني الذل هنا لأيام.»

صاحت إزميرالدا: «كنت أعلم أنه أنت! أبدًا! لن أذهب معك أبدًا؛ فأنت رجل بشع!» وصرخت في وجهه: «سأظل أحب فيبس دائمًا … فيبس وحده.»

قال وهو يجري في ظلام الليل: «إذن، لن يمكنني مساعدتك بعد الآن. أيتها العجوز الشمطاء، ها هي الغجرية! فلتنالي ثأرك!»

شعرت إزميرالدا بيد باردة تمسك بمعصمها، فأخذت تجذب يدها، لكن دون جدوى. صاحت إزميرالدا: «ما الذي فعلته لكِ؟»

– «خطف الغجر طفلتي، هذا ما فعلته لي.»

قالت إزميرالدا: «لكنني لم أكن قد ولدت بعد حينها.»

– «بلى، كنت قد ولدت بالفعل حينها. لكانت ابنتي تبلغ نفس عمرك الآن. خمسة عشر عامًا عانيت فيها، وصار الآن دورك أيتها الفتاة الملعونة!»

– «أرجوكِ، دعيني أذهب. أرجوكِ، لست سوى فتاة يتيمة تبحث عن والديها. لا يختلف حالنا كثيرًا؛ أنتِ فقدتِ ابنتك، وأنا فقدت والدي ووالدتي.»

قالت باكيت العجوز الشمطاء، وهي تخرج فردة حذاء صغيرة مطرزة: «اختطفتم طفلتي، ولم يبق لي من أثرها سوى هذا الحذاء.»

قالت إزميرالدا: «ماذا؟ لا يمكن أن …» وخلعت القلادة التي كانت ترتديها حول عنقها، وفتحت الكيس الصغير. كان بداخله فردة الحذاء الأخرى!

قالت السيدة العجوز: «آنيس؟» ثم شرعت في البكاء وهي تقول: «آنيس!»

قالت إزميرالدا: «أمي؟ أهذا أنت حقًّا؟»

عانقت كلٌّ منهما الأخرى فترة طويلة من الوقت، ثم سمعتا فجأة ضجة مدوية. كان الجنود هم مصدر تلك الضوضاء.

قالت باكيت: «هيا سريعًا! يجب أن نختبئ، لسنا بأمان هنا في الميدان.»

عادتا سريعًا إلى داخل ثقب الفئران المظلم. قالت باكيت: «اختبئي في الزاوية؛ فلن يبحثوا عنك هناك.»

انحنت إزميرالدا، ونظرت باكيت من النافذة ذات القضبان.

صاح أحد الجنود: «من هنا، أيها القائد فيبس! السيدة العجوز في ثقب الفئران؛ هذا ما قاله القِس، إنه هنا!»

حاولت إزميرالدا الوقوف عندما سمعت اسمه، فقالت لها باكيت هامسةً: «الزمي مكانك بأسفل، وإلا سيعثرون عليكِ!»

وصل الجنود إلى المكان على الفور، وقال أحدهم: «أيتها العجوز، نحن نبحث عن إحدى الغجريات. وقد وصلتنا أنباء بأنك تخفينها، أين هي؟»

– «لا أعلم، لقد فرت.»

– «أي اتجاه سلكت، أيتها العجوز؟»

– «ركضت باتجاه النهر، أعتقد أنها ستحاول الهرب عبر النهر.»

أسرع الجنود للبحث عن إزميرالدا عند ضفة النهر.

همست باكيت: «صار الوضع آمنًا الآن.»

نهضت إزميرالدا من جلستها عند الزاوية، ثم سمعت بالخارج صوتًا محببًا للغاية لقلبها حتى إنها خرجت راكضةً من ثقب الفئران قبل أن تتمكن باكيت من إيقافها. أخذت تصيح: «فيبس! تعال هنا رجاءً، يا فيبس!»

لكن فيبس لم يسمع إزميرالدا وهي تناديه؛ فكان قد رحل بالفعل. لم يكن هناك سوى جندي واحد لا تعرفه. حاولت إزميرالدا الركض خلف فيبس.

صاح الجندي: «قفي عندك! قفي الآن، أيتها السجينة، وإلا سأضطر لإيذائك.»

ففرت إزميرالدا بأقصى سرعة ممكنة.

الفصل الثامن عشر

كوازيمودو يصل بعد فوات الأوان

بعد أن وجد كوازيمودو غرفة إزميرالدا فارغة، هرع إلى خارج كاتدرائية نوتردام وعبر الطرقات ليعثر على إزميرالدا. ركض إلى ميدان بلاس دي جريف، لكنه وصل متأخرًا للغاية. فقد فارقت إزميرالدا الحياة. حملها الجندي على حصانه، لكنها تعاركت معه، وسقطت إزميرالدا لتلقى حتفها على حجارة الرصف.

عرف كوازيمودو بداخله أن كلود فرولو هو المسئول، كل ما حدث كان بسبب رئيس الشمامسة. عاد كوازيمودو مسرعًا إلى كاتدرائية نوتردام، لكنه كان متأخرًا ثانيةً. اختفت أغراض كلود فرولو، ولم يعد هناك شيء في غرفته، فعلم أن كلود فرولو قد فر خزيًا.

أخذ كوازيمودو يبكي، ثم فر مسرعًا هو أيضًا في ظلام الليل. وإلى هذا اليوم لا يعلم أحد ما حدث لأحدب نوتردام.